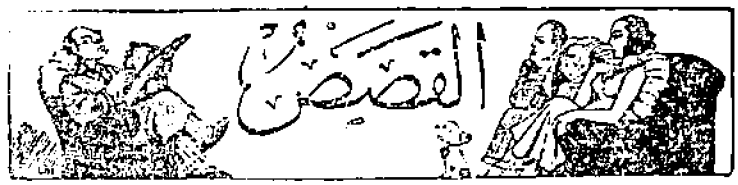

الدمـــيم (*) ...

للأستاذ حبيب الزحلاوى

— ١ —

ما كدت أبتعد بضعة أمتار عن المقهى حيث كنت جالساً مع طائفة من أصدقائى حتى شعرت بقبضة يد رقيقة تستمهلنى . التفت فرأيت واحداً من أولئك الأصدقاء الجلاس ، فلمحت فى نظراته شبه استعطاف ، فقال لى بلهجة لا تخلو نبراتها من قوة : أريد أن أسألك بشرط أن تجيبنى بصراحة ، ما هى عقدة القصة ؟ وما هى الحبكة ؟ ما هو العرض والفكرة والوحدة التى تكلمت عنها فقلت إنها عناصر حيوية للقصة ؟ أنا يا صديقى أحسن كتابة القصة ، أو بعبارة أخرى أحسن خلقها نوراً ، وأبتدع وقائعها وأشخاصها ابتداعاً ، وأجذب السمع إلى الانتباه إلىّ ، ولا أتركه إلا بعد أن أشبعه وأمتعه بلذات من الخيال المذوّق ، والتلفيق الموشى بألوان من حسن الكلام . أليس هذا هو الفن ؟ ! واستطرد قائلاً : ما دام الأمر كما ذكرت لك ، وأزعم أنى ذكرت الحقيقة الواضحة عن البناء الفنى ، فما هى إذن العقدة ، والحبكة ، والعرض والفكرة والوحدة التى تكلمت عنها ، وأحسب أنى فهمت من مجمل كلامك أن لا قيمة للقصة الخالية من هذه الخصائص ؛ فهل هذا صحيح ؟

أعجبتنى رؤية سحة الطفولة تكسو وجه هذا الشاب ورفقت به وبأمثاله ممن يتغالبون فى الآداب والفنون ويستهينون بها كأنها سهلة التناول فقلت :

تعال معى إلى النادى فهناك أستمع إليك بانتباه وأجيبك إلى طلبك عن رضى .

قال : فى الجلوس فى المقهى متعة للنظر لا وجود لها فى الأندية .

فقلت : ليس بى ميل إلى إشغال الذهن بمراقبة المارة ، وليس فى ذلك الطعام إلى المرأة الذى يتتابكم أنتم يا جلاس المقاهى

قال : نحن على غير مذهبك الفردى يا صاحبى ، نحن جلاس الأفاريز ، رواد المقاهى ، نتضور جوعاً ، نتلهف على لفتة من فتاة ، أو نظرة من امرأة ، ألا تحسّ مثلنا بالمجاعة الجنسية وقد طغت واستعصى أمرها على وزارة الشؤون الاجتماعية ؟

ابتسمت لكلام هذا الشاب المتحمس ، فأخذته من يده فمشى معى ، فلما دخلنا المصعد الذى سيرتفع بنا إلى الدور العاشر من البناء قال : انت مصرّ على الجلوس فى النادى وكثر الكهول والشيوخ من أرباب المال ؟ حسن ، سأجلس معك فى هذا النادى المرتفع المترفع عن الناس ، وأقص عليك قصة من صميم الواقع ، وأنا متيقن بأنك ستشهد لى ببراعة الارتجال ، وبأن القصة هى القصة ، أعنى أن العقدة والحبكة ، والفكرة والوحدة ، إن هى إلا افتعالات ، أما إذا كانت شيئاً غير ذلك فستدلنى عليه .

ابتسمت أيضاً لهذا الإدعاء الجديد الذى يمثل ادعاءات الشبان وهم يتوهمون الأمور وفق أمزجتهم الرخوة لا وفق الواجب فى معرفة الأصول ، وقلت لصاحبى بعد أن انتحينا ناحية فى النادى مزدانة بأصص من الزرع دائعة النضارة الربيعية ، يحسن أن تجلس هنا فتقص علىّ قصة شعرية يرتجلها خيالك الخصب وينتزعها من صميم الواقع كما قلت .

أرجو ألا تهزأ بى . استمع إلىّ :

« وضعت حقائبى فى المكان المعد لها ، وجلست على المقعد الذى احتجزته فى عربة القطار ، ثم التفت لأرى رفاق الطريق الذى سأقطعه برحلة واحدة من مرسيليا إلى باريس ، فلقيت سيدة تتألق نضارة وشباباً ، وضاحة المحيا بادية الفتنة وسمعتها تقول للرجل الجالس إلى جانبى : ألم أقل لك إنه غير فرنسى ، إذ لو كان فرنسياً لكان حيّانا بإشارة بسيطة ساعة دخوله ، ولما كان ألهاه المودعون ولا المشاغل الذهنية عن آداء التحية الواجبة » .

وسمعته يقول لها : لِمَ لا تقيمين للتقاليد والعادات اعتباراً ؟ لما ذا تفرضين على غير الفرنسيين الأخذ بعاداتكم وتقاليدكم ، وقد تكون هذه التقاليد التى ترينها حميدة عندكم مستهجنة عند بعض

(*) من مجموعة قلب مبعثر (تحت الطبع)

الأقوام ، وربما كانت مستقبحة عند أقوام آخرين أمثال الإنجليز مثلاً الذين يحيون من لا يعرفون مهما كانت الظروف والمناسبات .

فهمت من لهجة الرجل ومن قسمات وجهه ولون بشرته أنه أميركي يحسن التعبير عن خواطره باللغة الفرنسية وكان يلفظها صحيحة ولكن ببطء ممض أوجع نفس السيدة الفرنسية الجيَّاشة ، وأدركتُ أن مدار الحديث يدور حولي لأني أخذت مكاني في عربة القطار ولم أحي من فيها ساعة دخولي !

هل أدخل في القضية طرفاً ثالثاً على حد تعبير المحامين ، وهي قضية خاصة بي برغم قيامها بين السيدة الفرنسية والشاب الأميركي ، أو ألزم الصمت وأحترم سجية نفسي وعادات قومي وأسكت عن الكلام مع من لا معرفة لي به . أليس في ذلك تطفل أو تخط للعرف ؟ أو ليس هو وسيلة سهلة مؤدية إلى التعرف بهذه السيدة الجميلة المغرية ؟ أو ليس في ذلك فائدة للوصول إلى ناس يطيب لي أن أحدثهم عن قومي وبلادي وقد لا يعرفون عنهم شيئاً أو يعرفون ما تنقله لهم الدعاية المغرضة ، والفكر الاستعماري وجهالة بعض الكتاب الطائشين ؟

جالت هذه الخواطر في ذهني والسيدة والرجل ما زالا يتحاوران ويتناقشان . هي تصر على أن عادات قومها مرتكزة على قواعد آداب الاجتماع وهو ينكر أن للآداب الاجتماعية قواعد ثابتة ، هي تقول إن قواعدها الفن والذوق ، وهو يقرر أيضاً أن مباءات الفن هي معارض النحت والتصوير ودور التمثيل وبعض دواوين الشعراء وكتب الأدباء والروائيين ، وأن الذوق مسألة فردية وإحساس ذاتي . هي تغضب من تعمده إهمال ذكر المرأة في أنها الفن كله باعتبار أنها الباعثُ الأول على استفزاز ملكات الفن والإلهام الفني ، وهو ينكر عليها بعض دعواها ويؤيد بعضها ويقول : إن المرأة موحية حافزة ، وليست هي بشيء في صميم الفن ! هي تصرخ قائلة : إنكم معاشر الأميركان لا تذوقون الحياة إلا عن طريق الدولار ؛ وإنكم ... وإنهم عبدة الدولار فقط . أليس كذلك يا مسيو ؟ والتفتت إليَّ تدخلني في هذا الجدال . كاد يرتج عليَّ حين فاجأتني بسؤالها وهو استنجاد بي أكثر منه سؤالا ، ولكني تمالكت نفسي وقلت :

إخال أني كنت السبب في هذا الحوار الذي بلغ بكما إلى هذه النتيجة ، فهل تسمح لي سيدتي أولاً أن أحييها وقد آليت على نفسي مجاراة الفرنسيين وتقليدهم ما دمت في بلادهم ثم أدخل في الحوار ، لا كفضولي متطفل قد تعرضه صفاقته إلى سماع ما يؤذي إباء النفس ، بل كرفيق الطريق الذي يحرص على إبقاء أطيب أثر في نفوس رفاقه ؟

هاك يدي . أما أنا فمدام « فرانس » وصديقي هذا مستر « أميركا » وأنت يا صديقنا على هذا القياس من تكون ؟

رطبت شفتيَّ بقبلة من يدها البضة وقلت متابعاً على المنوال نفسه : أنا يا سيدتي مستر « إيجبت ».

إيجبت ... إيجبت ! رددت السيدة كلمة إيجبت وهي تلفظها ممطوطة ممدودة بتؤدة كأنها تعود بذاكرتها آلاف السنين إلى الوراء تستعرض بلمحة واحدة آثار الماضي السحيق الباقية على الدهر وتقول : أنت إذن مصري ؟ !

نعم يا سيدتي أنا مصري من سكان القاهرة ، وأنت فرنسية فقاطعتني قائلة : « فرنسية باريسية » وصديقنا أميركي من واشنطون أو نيويورك وليس قطعاً من هوليود . وها نحن الثلاثة نمثل ثلاثاً من قارات عالمنا ، ونمثل أيضاً أعرق مدنية عرفها التاريخ القديم وهي تتوثب الآن للعودة إلى الحياة ، وأعرق مدنية حديثة ستتغلب عليها مدنية أحدث منها ، ومدنية جديدة في العالم الجديد قد يكون لها طابع خاص سوف يتحول بسرعة إلى طابع يعم العالم ، وأردفت كأنها تتدارك فوات فرصة : نعم نعم سيكون الدولار طابع أميركا الخاص كما يحاول الروس أن يجعلوا الاقتصاد أساساً لنظام العالم الاجتماعي الجديد . قالت السيدة كلمتها عن الدولار . وضحكت ضحكة عالية لها رنة الأوتار المتزنة والنغمات الرقيقة .

قلت : العالم يا سيدتي لا يقوى على السير في نظام اقتصادي محض بل يستحيل عليه المضي في طريق السعادة البشرية بغير دوافع الروح

هذا صحيح يا مستر إيجبت ولكني ألاحظ أن مدام فرانس تتحداني في كل ما أقول ، فإذا كان ذلك يا لذ لك يا سيدتي فلا أمانع أنا الأميركاني في تقرير الدولار طابعاً لبلادي وهو بالفعل الإله الذهبي الموحى إلى كل الناس كل الرغبات والشهوات .

المرأة يا مستر أميركا ، أرجوك ألا تنسى المرأة ، بل أحتم عليك عدم نسيانها لأنها الروح الذي تكلم عنه مستر إيجبت ولأنها وحدها الموحى لكل الناس كل الرغبات والشهوات — على حد تعريفك أنت — بل هي وحدها موحية الحياة والحب

لو كل النساء كن مثلك يا سيدتي لما ترددت في الاعتراف بذلك ولكن ...

دع يا مستر أميركا قرض المديح ونظم الثناء والإطراء لأنها من طبائعنا الأصيلة التي لم نقتبسوها عنا بعد ، وإنها وإن كانت

ترضى غرور المرأة وتدغدغ زهوها ولكنها لا تقوم مقام الحقيقة التي لا محيص عن الاعتراف والجهر بهـا وهي « أن المرأة هي الإله الوحيد الموحى إلى كل الناس معنى الحياة والحب ، ولذة الوجود والفرح به على الأرض ، ولذة الألم والحزن أيضاً » .

قال مستر أميركا موجهاً إليّ السؤال : هل تعترفون بألوهية المرأة في مصر ، وبأنها مصدر إلهام يوحي إلى الناس معاني الحياة كما قالت مدام فرانس ؟

بلعت ريقي وتكلفت ابتسامة رضى وقلت : ليتك يا مستر أميركا تضع السؤال في الصيغة التالية : هل بلغت المرأة الأميركية درجة من الرقي سمت بها إلى مقام جعل الرجل يتطلع إليها فيه كما نتطلع كلنا إلى المرأة الأوروبية باعتبار أنها الملهم معاني الحياة والدافع إلى الشعور بالفرح بها ؟

لقد نجحت في تحويل الدفة ، كما يقال في تعبير التونية ، وفي رفع الأثقال عن كتف المرأة المصرية والرجل المصري ، وفي إزاحة الألم عن نفسي من قول الحق ، وقد أفلحت في ذلك ، إذ ما كدت أنتهي من تحريف السؤال وتوجيهه إلى مستر أميركا حتى ابتدرت مدام فرنس تقول : تخولني معلوماتي حق القول بأن المرأة الأميركية أخذت تدرك قدر نفسها وستنجح في صيرورة ذاتها مصدر حياة أفعل في روح الرجل الأميركي من الدولار .

ما كادت تنتهي مدام فرانس من قولها حتى رأيتني مدفوعاً إلى الكلام فقلت معقباً :

سوف تصير المرأة المصرية ذاتها مصدراً لإلهام الرجل وإذكاء روحه متى خلعت من شوائب الطفرة وبعد أن ترغمها الآلام على التفكير في ماضيها ومستقبلها بالقياس إلى حاضرها المضطرم بنيران الانتقال .

صحيح ما رمزت إليه بلباقة يا مستر إيجبت عن المرأة أنها في طور الانتقال الذي يعقب الانقلاب الاجتماعي ، ويمكنني القول إن بواكير الانقلابات تكون من النساء وفي النساء كما تكون بوادر الثورات وطلائعها من شرارات يقدحها طلاب الجامعات بإيحاء غير مباشر من أرواح يقظة عاملة هادئة .

* * *

سكت محدثي الشاب وكاد يطول سكوته ولكنه رفع رأسه ونظر إليّ نظرة استفهام واضحة ، فقلت له ببرود : ثم ماذا ؟

ماذا ؟ ! نعم نعم ، كدت أظن أني أنهيت القصة ولكني نسيت فصلها الثاني .

دوّى رنين الجرس يدعو الراغبين في الطعام من ركاب الدرجة الأولى إلى تناول العشاء ... وكان الكلام حتماً لمدام فرنس التي أمرت أحد النذل (جارسون) بتهيئة مائدة لثلاثة أشخاص ... فكان طعام وكان شراب ، بل كان شراب وطعام وكلام وشعر وتوريات ورموز وتلميحات ومقارنة بين المرأة المصرية وأختيها الفرنسية والأميركية ، وكادت تضطرم ثورة مدام فرانس لتوهمها أن أختها المصرية أوفر براعة منها في إرضاء الرجل ...

عدنا إلى مقاعدنا وقد أذبل الشراب أجفاننا ، وأخذ قوة النضال الكلامي فينا ، وأذكى بطبيعة الحال قوة النظر الطويل والإعجاب الذي لا حدّ له والافتتان بهذه المرأة المملوءة حيوية وجمالاً ونضارة وسحراً والممددة أمامنا على مقعد عربة سكة الحديد تحاول النوم على هدير القاطرة وصفيرها وقرقعة العربات .

لقد أحييت الليل ورفيق الأميركي نتحادث همساً حتى لا نزعج السيدة النائمة ، وكان طبيعياً أن نختلف في الرأي وأن نتحاور ونتجادل ثم نعود إلى صفائنا الأول ، وكان بديهياً ، بحكم الرغبة الكامنة ألا نختلف أبداً وأن نتفق اتفاقاً تاماً على ألا نعيد الغطاء كلما سقط عن جسم هذه المرأة الفاتنة المتناومة ، وكان عذباً على سماعنا قولها : يا لكما من شابين شقيين !

سكت محدثي مرة ثانية فلم أدعه يتمهل بل قلت له بنبرة جافة : ثم ماذا ؟ صدمه سؤالي وكاد يتخاذل ولكنه تجلد وقال :

طلع الفجر ، ثم تفجرت أشعة الشمس ، وانجلت عروس تربة فرنسا بثوبها الزبرجدي النضر . وبلغنا باريس فافترقت القارات الثلاث ، وراح مستر أميركا ومستر إيجبت كل في طريقه ، وراحت مدام فرانس تنثر القبلات وتتقبل القبل من مستقبليها على إفريز المحطة

ربتّ كتف محدثي وقلت له ببشاشة أذهبت وقع الصدمة الأليمة التي صدمته بها عند سؤالي إياه تتمة القصة بقولي : «ثم ماذا» ليست قيمة القصة يا صاحبي في المادة التي تتألف منها ، ولا في كيفية ترتيب تلك المادة ، بل قيمتها في الكيفية التي تؤدى بها وفي عرضها عرضاً خاصاً بمهارة فنية ، بالتشويق والترغيب ، في صدق الرواية عن الحياة ، مضافاً إليها الخصائص الفنية التي ذكرتها في حديثي مع رفاق المقهى ، أما قصتك المرتجلة هذه فإنها تماثل حكاية واقعية وقعت لي حين رحلت إلى جزيرة رودس التي انتزعها الطليان من الدولة العثمانية مع بقية جزر الدوديكانيز .

قال: أترتجل قصتك ارتجالاً ؟ فابتسمت لسؤال هذا الشاب وقلت

يتبع

حبيب الزحلاوي